الهوية

قصة بقلم محمد عزيز الحبابي

كان مساء يوم الخميس ٧ اكتوبر من سنة ١٩٦٣ مرعدا ممطرا . بعد ان ساد الغرفة سكوت لا تقطعه سوى انفاس متعبة ، وقد غلف الجو ليل زائر لا يبعث على تفاؤل ، صاح « المشلغم » :

ـ يا اخوة !

انتبه الجميع ، واتجهت اكثر من مائة عين الى الرجل الواقف في مؤخر الغرفة ، تعكس وجهه العريض شمعة قصيرة ارهقها الاحتراق حتى بدأت تلامس الارض ، تميل شعلتها ذات اليمين وذات الشمال في تراخ كخطوات متثاقلة لشيخ مريض .

بلع ريقه ، وفتل شاربيه الطويلتين اللتين استحق من اجلهما لقب « المشلغم » ، ثم صاح :

ـ يا رجال !

تسمرت الوجوه نحوه ، وامتدت الاذان ، ولكن الكلمات لم تخرج من فمه ، فكأنها اكبر من حلقومه . ولاول مرة يرى القوم المشلغم مترددا ، بل عاجزا عن الكلام . اين نبراته المرعدة ؟

سكوت مخيف .

الجميع يحس بفضول ملح لان يعرف ما سيصدر عن الطود العتيد الذي استطاع ان يبسط سلطته الجسدية والمعنوية ، لا على الغرفة ٧٣ فحسب ، ولكن على مجموع غرف سجن « عين مومن » ، وعلى كل ما ينتمي اليه من سجناء وحراس واداريين .

***

المشلغم من الشاطىء الاطلسي ، من ناحية « دكالة » المشهورة بالقمح الوفير ، والعنب الاسود الغليظ ، وباجسام رجالها الضخمة . ان له جسدا من القالب الكبير : ١٨٠ سنتيمترا طولا ، مع عرض مناسب ، وعضلات كثيفة ، ووزن نجاوز المائة كيلوغرام . كل شيء في هذا الجسد متناغم . اذا تكلم المشلغم تجعدت اسارير جبينه ، وجحظت عيناه السوداوان ، وارتخت شدقاه ، وتقلص ذقنه ، وامتدت شفتاه . لصوته دوي يابس . اثنتا عشرة سنة بالسجن (او الديار المقدسة كما يطيب له ان يسميه) اكسبته حنكة في قيادة الرجال ، فانسجم صوته مع صدى الغرف ، واعترف له الحراس والسجناء بامتيازات الاسبقية وبفضائل القوة الجسدية .

لم تمض عليه الا خمسة اعوام بـ (عين مومن) حتى اصبح يتمتع بحصانة المحظوظين ، ينظر اليه بتقدير مقرون بالخوف والغبطة . انه يعرف كم هو قوي البنية ، وقوي العزيمة ، مما يجعله اسد الغرفة : يأمر فيطاع . ولكنه يظهر قواه ويتباهى بها اكثر من ان يستعملها ، اذ قلبه لا يخلو من رأفة . له لسان طويل طليق لا يفتر عن التوبيخ والنقد ، ولكنه يمنح الثناء للمستحقين ، تنزل عبارات نقده على الخاطئين كالزمهرير ، فيحنون رؤوسهم وهم صاغرون . اما ذراعاه المفتولتان واصابعه الطويلة فلا تتحرك الا عند الحاجة ، فلطالما كرر : « هؤلاء البشر كدجاج الماء ، بنفخة مني يطير الواحد منهم . فكيف به لو ركلته او ضربته باحدي يدي !؟ ... » .

انه يطاع ويحترم لان للقوة هيبة في نفوس البشر ، فهو قوي بالقوة في ذاتها ، لا لنتائج القوة ، مما اسبغ على قوته شيئا من القداسة ، ومن هنا الجانب الاسطوري في شخصية المشلغم .

***

نعم ، يروى انه مرت عليه فترة بعين مومن كان فيها سليطا اكثر من اللازم ، ومشاغبا ، ولكن ذلك ليس اصيلا في طبعه ، بل طارئا فحسب .

عندما دخل السجن ، كان حلو الكلام ، يقيم صلواته الخمس كل يوم ، ويكثر من الذكر ، حتى اطلق عليه رفاقه اسم « الفقيه » ، ونادوه احيانا بـ « الشيخ » .

بعد اعوام ثلاثة ، صدر عليه الحكم بعشرين سنة سجنا ، وقد كان يطمع في السراح ، فما فتىء يحاول الاقناع ببراءته : لم يقتل ، انه مظلوم ، انه ضحية ...

صدر الحكم فنقل « الفقيه » الى قسم المجرمين ، بعد ان لبث ٣٦ شهرا بقسم الاعتقال المؤقت .

تغيرت حياة « الشيخ » . لم يجد في غرفته الجديدة الا كل اثيم مفتخر يتشدق بما قام به سابقا من مساوىء وموبقات . فالبراءة كلمة عديمة المعنى بين المجرمين المرموقين ، بل يعدونها مسبة في حق ايهم تنسب اليه او ينتسب اليها .

اراد « الفقيه » ان يصلي فاتخذ سخرية :

ـ لا يا سيدنا ! قد اخطأت الطريق : المسجد بقي في البلد ، اما هنا فعالم قد نسيه الله من حسبانه . عد الايام ، وعندما تخرج الى عالم المدنيين المحظوظين ، ادفع لربك صلواته بالجملة !

وزاد ثان :

ـ يا مولانا ! نحن لا نتفاءل بالذكر او بالصلاة : نجعل السبحة في عنق صاحبها حتى يختنق ، ومن صلى ركلناه عند الركوع كي تنطح جبهته الارض ويرى النجوم السبع ... افهمت ؟! ...

ويضيف اخر :

ـ من الخير لك ان تمثل لنا كيف فعلت مع قتيلك حتى نتفرج ، وان تحكي لنا كل سوابقك البطوليه ... اننا هنا لا نتسلى الا بماضينا . من لا ماضي له عشرته ملل وضجر . فالمرأة تفتخر برجولة زوجها ، والرجل يفتخر بماضيه ...

***

عبثا حاول صاحبنا ان يعظ القوم ، ولكنه كان في واد ومن يرشدهم في واد . لقد طلبوا منه ان يدعو ربه بأن ينزل عليهم مائدة تدخل من الشباك ، فيها الكافي من السجائر والخبز بالجلجلان والدجاج المقلي بالزيتون الحامض . اذا كانت صلواته مقبولة ، فلا بد أن يستجيب الله دعاءه ... انهم يودون ان ينعموا ، في هذه الدار ، وفي هذا الوقت بالذات الذي ينجرعون فيه الحرمان ... الان ! .. الان ! اه ، الان ! ما شأنهم والغد ؟ اذا لم يتنعموا الان فقدوا الحاسة الجمالية وظهرت لهم ، في الجنة ، الحور العين ، فالخنافس . فاية فائدة في الانتظار ؟ ...

غضب المشلغم في المساء ، كما غضب في الصباح ، وغضب اليوم ، كما غضب امس ، ولكن « على من تقرأ زبورك يا داوود ؟ » .

لقد تحالف القوم ضده ، ونبذوه من زمرتهم لا يكلمونه الا بازدراء وسخرية .

***

كانت للفقيه لحية طويلة ، تصاحبه منذ ايام الحرية ، فاخذ

السجناء في البداية يمرون اصابعهم عليها « تبركا » ، ثم صاروا يجذبون اطرافها بعنف ، وصاحبنا في حيرة من امره ، يصطنع الابتسام عليه يتغلب على الم العزلة التي فرضوها عليه . فتغير طبعه ، بعد ان تخلى عن الذكر جهرا ، ثم سرا . احس انه يحيا سجنا مضاعفا : ظلم البيئة قد زج به في معتقل (عين مومن) ، اما سوء اخلاق رفاقه فقد جعله سجين السجناء . تقلت عليه وحدته ، وظهرت الالام في سلوكه ، وحتى في جسمه :

« اني ميت ولا احد يشيع جثماني الى المقبرة ...

اه . كل ما افعله يعتبرونه مخالفة مني لاعرافهم . فلست من عالمهم حيث يتلهون بكل شيء ، ويحاولون التسلي وتناسي وضعهم ، مما يعينهم على حياة عادية في عالم ليس عاديا . لم اعد من عالمي انا : الايام قد اعطبت اعرافي وعاداتي . من انا ؟ اني بريء ، والعدالة تعدني قاتلا ! انا سجين ، والمسجونون ينبذونني من حظيرهم . ما زلت مؤمنا ولكني ، منذ شهور ، لا اتدين ... من انا ؟ نعم ، من انا ؟ » .

دمعت عيناه ، وحاول ان ينام .

« يا رب ! لقد غلبت على امري ! ايماني قوي ، ولكن تيار المحيط الذي يعاندني اقوى . بالتسك كنت اطمع في جنتك ، ولكنهم القوا بي في جحيم الوحدة . يا لطيف بك استعين ! يا رب الارباب » .

شخر مرات ، ثم ارتفع صوته من جديد :

« كلما ابتعدت عن العبادات شعرت بانفصام عنيف عن الماضي العزيز ، ولكن جحيمهم لا يطاق . ان بقيت هكذا ، على عتبة عالمهم ، تصدع كياني ... لو كنت في زنزانة منفردا لكان ذلك اريح لي ، ولما انسلخت عن الماضي ، عن شخصيتي ... والان ما العمل ؟ »

هنا هزه سجين من كتفه بعنف :

ـ الا يكفي الشخير ؟ ان كان لا بد ان تحلم جهارا ، فاذهب الى المرحاض واتركنا ننام ! »

كالعادة ، كتما المشلغم في نفسه ولم يبدها لهم ، تجنبا لكل تعقيد في القضية . صدمة اخرى اذهبت عنه النوم . فاخذ يفكر :

« هكذا سيتدخلون حتى في احلامي ! .. »

لقد ازفت ساعة الاختبار : المقاومة او الاستسلام التام ... ليس عليه الا ان يعلن الحرب على تصرف الخبثاء : ان صاحوا ، صاح اكثر منهم ، وان سبوا كال لهم الرطل رطلين ، وان ضربوا ضرب ... والعاقبه لمن هو اشد قوة . اليس هو اكثرهم جميعا قوة جسمية ؟

***

من تلك الليلة ، دخل صاحبنا مرحلة تاريخية من حياته : فرد ان يتصعلك ، مثلما يتصعلكون واكثر ، فيجازي السيئة بالضعف .

شعر بشيء من راحة البال ... واخيرا كيف سلوكه مع سلوك رفاقه ، فامتزج بعالمهم . لكن بالرغم من ذلك لم يتواجد معه القوم تواجدا صريحا ، انهم يعتبرونه الان واحدا منهم ، ولكن مع شيء من التحفظ .

هو قوي ، هذا شيء مسلم ، ولكن الجماعة المؤتلفة تتغلب على الفرد ولو كان اسدا ، فليتحزبوا ضده في صف متماسك .

مرت الايام ، واخذ مساجين قدماء يسرحون ، ويأتي مكانهم جدد لا معرفة لهم بطقوس المكان ، فتصادق صاحبنا مع هؤلاء وحزبهم تدريجيا ضد خصومه العنيدين ، واحرز على شيء من النجاح لانه قد تعرف ، بدقة ، على نواحي الضعف عند زعماء معارضته .

***

جاء يوم عيد الفطر ، فقرر الجميع ان ينظموا حفلة مسائية في غرفتهم . غنى القوم ، وتبادلوا النكت ، وفي نشوة الاحتفال ، طلب بعضهم من صاحبنا ان يرقص ، وهددوه بافتلاع لحيته ان ابى . امتنع « الشيخ » ، فانقلبت الحفلة الى ضجيج ومشاغبات ، وانقسم القوم الى معسكرين : اقلية الى جانب صاحبنا تدافع عن لحيته ، واخرى تريد حرقها . واخيرا تدخل حارس الليل وفرض السكوت على الجميع.

***

في مساء الغد قصد « الفقيه » حجام السجن وحلق لحيته ، ثم برم شاربيه وصقلهما بالزيت لتلمعا . حاول الا يراه رفاقه ، وانسل الى الغرفه متسترا . فتعجب القوم ان لا يكون صاحبنا معهم في الصف وهم ذاهبون الى الاكل ، وبدأت التساؤلات والتعليقات تتابع ، ولشد ما بهروا من منظره عندما دخلوا عليه .

كان واقفا في مؤخر الغرفة المستطيلة ، وقد تخلى عن ثيابه ، عدا سروال صغير يستر عورته ، وخلل ذراعيه فوق صدره ، وفرق بين فخذيه ، وامال رأسه شيئا ما نحو كتفه اليمنى لتستقيم له نظرات حادة نحو الرفاق وهم يدخلون واحدا بعد الاخر . جحظت الاعين ، ولكن الالسنة لم تنطلق . مشهد صاحبنا مريع .. لقد تخلت عنه وداعته ، وفارقته سيمة الوقار ، وبرزت معالم حزن عميق على وجهه وكأنها كانت فيما مضى تتستر وراء اللحية . ظهرت رجولة « الفقيه » في كل المفاصل القوية ، وفي النظرة الفاسية ، وفي وقفة العتو . لم ينبس احد ببنت شفة ، ولم يستطع ان يواجه نظرات صاحبنا بمثلها . انكشف الجميع ، هذه المرة ، ان « الشيخ » ليس قويا فحسب ، بل ان عضلاته عضلات هرقلية ...

وبعد لحظات تبادل خلالها زعماء المعارضة الغمزات ، ارتفع صوت احدهم :

ـ اين لحية الشيخ ؟ لقد مسخ وجهه بدونها . ها ها ! ..

فاجاب تان :

ـ الم يحرقها عمر ، كما وعدنا بذلك امس ؟

وارتفع صوت ثالث :

ـ لكن بقيت الشلاغم ! ..

صفقت جماعة وهي تردد :

ـ ليحي المشلغم ! ليحي المشلغم ! ..

كانت عبارات للتحرش ، ولكن صاحبنا لم ينفعل ، مما شجع احدهم ان يقول :

ـ لو ان عمر كان بطلا لرفصنا امس على نيران اللحية الموفرة !

فصاح اخر :

ـ من الان فصاعدا ، كلما ذكرت اللحية ، وجب ان نقول : يرحمها الله ! الله اكبر ! ماتت اللحية ! فلنعلق الرجل من شلاغمه البرافة !

تمزقت قهقهات من جوانب الغرفة الاربعة ، والفقيه لا يحرك ساكنا . فصاح عمر هازئا :

ـ عوضا من ان يسمح لنا بحرقها ، حلقها ورمى بشعرها في قدر الحريرة التي شربناها هذا المساء ، لهذا انا احس الان بوجع في معدتي. كم قلت ، وكررت عليكم ، ان الشيخ خبيث ! ها ... ها ...

***

ضم صاحبنا قدميه واطلق ذراعيه . وتمطط بكل جسده ، ثم طقطق اصابعه ، قبل ان يصيح بصوت مرعب :

ـ نعم ، اني خبيث ، وسأذيقكم حلاوة خبثي ، كل يوم .. نعم ، فليحي المشلغم! من الان فصاعدا، اسمي هو المشلغم، المو ـ شا ـ لغا ـ م!

ساد صمت رهيب ، واستيقظ حزب المعارضة على واقع جديد . ما الموقف ؟ مقاومة المشلغم وهو ينتفض عليهم ، ام الاستسلام الى تهديداته ؟ هل هو على قدرة كافية لانجاز وعيده ؟

بدأ كل واحد من الخصوم يقارن بين امكانياته الجسدية وامكانيات محالفيه ، وبين قوة المشلغم والعاطفين عليه . وعندما كان كل واحد يتصور الوضع الجديد ، وهو جالس على ملاءته يلقي نظرات خفيفة على صاحبنا ، بقي هذا واقفا ، يتمطط تارة ويتثاءب تارة ، في نشوة الواعي لقواه ، المتيقن من النصر . كل حركاته تعبر عن زهو نفس تنفجر بعد ان طال بها اعصار الكبح . بارك الله في القوة! انها نعم المحرر ، ونعم الحليف !

سأل صاحبنا القوم بملء شدقيه :

ـ مالكم سكتم وكأن على رؤوسكم الطير ؟ ان الشيخ ، او الفقيه ، قد تحول الى المشلغم .. الخبيث .. اسمعوا ! لقد انزلت الحمل عن

كتفي : من اليوم ، اشهد أنا الفقيه الحاج عبد الله الدكالي ، ان اسمي هو المشلغم ، واني قد تجردت عن كل ما يذكرني بماضي حياتي : فالقوة صلاتي ، القوة ذكري ، القوة ستنسيني المروءة والاخلاق ، فلتحي القوة . وليحي المشلغم . الله . قد فجرت القرحة ، وهجرت عالم الحاج عبد الله الدكالي لالقي بنفسي في عالمكم . فحتى اللحية اقتلعتها لكي ادخل عالمكم دون أي زاد او اية ذكرى .. والان مرحبا بي في عالمكم ! .. ولكي نحتفل بحقيقة مولودنا الجديد ، ستشاهدون مبارزة في هذا المساء .

اخذ يتمشى ذهابا وجيئة في تبختر ، ثم التفت الى عمر ، رئيس المعارضة :

ـ الان ، تعال يا حضرة الزعيم المشؤوم ! اقترب لاشفيك مما اصابك في كرشك ، بعد أن ابتلعت شعر لحيتي رحمها الله !

***

اصفر لون عمر ، وسرت في كل جسمه رعشة ، وفغر فمه دون ان يصدر عنه شيء ، ثم ضم شفتيه وهما يضطربان كشفتي محموم . حاول ان يفتعل الابتسام ، فخانه التوفيق ولم يظهر على وجهه الا ما يشبه مدخلا الى الابتسام . مشى المشلغم ، بخطى متراخية ، وصدره بارز ، والذقن متعجرف ، حتى اذا مر باحد الخصوم ، مال عليه بسرعة وخطف من بين شفتيه سيجارة موقدة ، وجعلها في فمه . اخذ يمتصها بنهم ، ثم اقترب من عمر وقذف بكميات من الدخان على وجهه . توقف المشلغم ليفتل شاربيه ، والسيجارة تتدلى من جانب الشفتين . سقط بعض الرماد على رأس عمر ، فأزاله دون ان يحتج . ماذا اصاب « الزعيم » ؟ هل به شلل حتى يصبر على الذل والمسكنة دون ان يحرك ساكنا ؟

الجميع يعرف أن لعمر فكرا صغيرا يتربع جمجمة كبيرة لا تضاهيها جمجمة اخرى في الفرقة ٧٣ ، ولكن لسانه لا يفتر عن التنكيث والسب وان يده غالبا ما تسبق لسانه ، فيصفع خصومه على الوجه ، او يضربهم على الصدر ، وان ضرباته تترك ، دائما اثرا لا يستهان به . الكل يعلم ان المشلغم وحده ، من بين الجماعة ، قادر على ردع عمر ، لولا ان لـ « الزعيم » انصارا اوفياء ...

الان ، ماذا سيفعل عمر ، وقد تحرش به المشلغم ؟

لاول مرة رآه القوم يهان دون رد فعل . لقد تخيل بعضهم انه سيقفز واقفا وينتقم اشد انتقام ... هل سكوته خدعة حرب ترقبا للفرصة المناسبة حتى يضرب في المفصل ؟ لم يترك المشلغم لتخمينات القوم مجالا ، فقد جثا على ركبتيه ، امام عمر ، واخذ ينفخ الدخان بملء شدقيه على وجه الزعيم :

ـ ما رأيك ، يا عمر ، لو اني احرقت ما تبقى من شعر على بصلة رأسك الميمون ؟

جعل عقب السيجارة على رأس عمر ، فصاح هذا مستغيثا . وقف المشلغم وانذر :

ـ بالله العظيم ومولاي « بوشعيب » ، ان كل من يحاول ان يحمي عمر لا يلومن الا نفسه !

اخذ المشلغم يمشي ، في وسط الفرقة ، فلا تسمع الا خطواته ، ثم وقف فجاة ، واضاف بلهجة صارمة :

ـ اسمعوا ! باسمكم جميعا ابلغ عمر اننا لن نعتبره ، من الان فصاعدا ، « كبرانا » مسؤولا عن الفرقة ٧٣ .

تململ احدهم وقال :

ـ لماذا تتكلم باسمنا ؟ اليست لنا السنة ؟..

وثب المشلغم نحو المتكلم ، واخذه من قدام قميصه ، وانتشله مرات قبل ان يوقفه بعنف ويرمي به فوق مجموعة من الرفاق :

ـ من أعطاك الكلمة يا ابن الزنا ؟.. والان ما رأي عمر ؟

اخذ عمر يتمتم ويتعلثم قبل ان يصرح بانه يتخلى عن منصبه .. انه يقترح ان تسند المهمة الى الحاج عبد الله الدكالي .

فسأل المشلغم غاضبا :

ـ من هو الحاج عبد الله الدكالي ؟ هذا الشخص اعدمناه !

نحن ، هنا ، لا نعرف الا المشلغم ..

ـ يحي المشلغم ! يحي المشلغم !

ـ شكرا لكم !

ثم التفت جهة عمر يسأله بنظراته ، فاستانف هذا الاخير الكلام :

ـ اني اقترح ان يقوم بالمهمة المشلغم .

ـ فليحي المشلغم ! فليحي المشلغم !

ـ شكرا لكم !.. اني متيقن أن بعضكم يؤيدني انتقاما من عمر ، لا حبا في ، وان البعض الاخر يجاري التيار نفاقا ، عملا بالمثل المغربي ، « الله ينصر من اصبح » .

حتى المشلغم رأسه ، كمن يفكر ، قبل ان يرفعه ويصرح :

ـ اذن ، فلاحي أنا !..

***

في صباح اليوم التالي ، قبل الذهاب الى الاشغال ، توجهت جماعة من غرفة ٧٣ ، من بينها عمر والمشلغم ، لتخبر الاداريين بما حصل من تغيير في قيادة الغرفة . فقال الناطق بلسانهم :

« لقد قررنا ، بالاجماع ، ان يصير الرقم ١٧٠٣ ، وهو الحاج عبد الله الدكالي ، كبرانا علينا . ان ٢٣١٣ ، عمر ، تنازل عن المهمة . والكبران الجديد يحمل اسم المشلغم » .

مرت شهور والمشلغم يمارس القيادة : يتكلم باسم الغرفة مع ادارة السجن ، ويستخدم بعنف السلطات الثلاث ، الصوت المزعج ، والصفع باليد ، والركل بالرجل ، كل واحدة على حسب الظروف . ومع مرور الايام ، اخذت الطبيعة تتغلب على التطبع :

« انا لا اؤمن بنبالة الدور الذي العبه . فلي ملاحظات كثيرة على شخصيتي السابقة ، على الحاج عبد الله الدكالي ، ولكنها شخصية احسن بكثير من شخصيتي الحالية : المشلغم مجرد حيوان .. قوة غاشمة .. انه لئيم .. » .

اخذ الحنين الى الماضي ينتاب صاحبنا وينمي غصته ، والقلق يمص كل اهتماماته . وفي ليلة الاحتفال بعاشوراء ، كان كل فرد يتقدم الى وسط الغرفة ليحكي حكاية هزلية من قريته ، او يرقص ويغني كما يفعل ناس اقليمه .

وجاء دور المشلغم ، فصرح لهم معتذرا بأن باعه قصير في هذا الميدان ، ثم اضاف :

« منذ اسابيع ، وانا افكر في يوم عاشوراء وما يمكنني ان اقدمه لكم زكاة وصدقة بهذه المناسبة ، فلم أجد لدي الا سلطة (الكابران) . هذا كل ما املكه » .

سكت المشلغم ، وابتلت عيناه ، ثم قال في لهجة صدق وتأثر :

ـ آه ! يا لمرارة التجربة ! ، انتصر المشلغم وهو لا يمثل ، يصدق ، شخصي كما هو في الواقع ، وكما وددت ان يكون .. انتصر المشلغم لانه يتجسد القوة الغاشمة ، لانه يتحدث بلسان العضلات المنيعة ، وبالركل والتقريع والوعيد !.. انتصب هذا المخلوق الخبوث على جثة الحاج عبد الله الدكالي الخير الوديع الذي كان غفر الله له ، يؤمن في معاملاته بقوة المبادىء ..

تغلف المشلغم بسكتة ، وحنى رأسه ، وقد خانته قواه ، وانتابته انفعالات متتابعة متضاربة . ثم رفع رأسه ، وقال في لهجة هادئة :

ـ اني اظلم المشلغم . فالذي قضى على الحاج عبد الله الدكالي هو في الواقع الحاج عبد الله الدكالي نفسه !..

انتبهت الانظار ، وكانت العيون تتساءل باستغراب . فطن المشلغم لذلك فاضاف :

ـ نعم ! الحاج عبد الله الدكالي لم يقتله احد ، بل انتحر . كان ، عفا الله عنه ، انانيا حتى خنقته انانيته ومات . دخل السجن فاخذ يعيش لوحده حياته الروحية ، يصلي ويكثر من الاذكار ، ناسيا رفاقه . لو لم يكن الحاج عبد الله الدكالي انانيا ، لعلمكم القراءة والكتابة ، ولالزم نفسه بتهذيبكم وتخفيف ما بكم . الحاج عبد الله الدكالي مثقف خان الثقافة ، فكانت النتيجة ان تغلب الواقع المر على انانية الثقافة

وغرور المثقف ...

ابتلع المشلفم ريقه ، ومسح عينيه ، وتدثر بسكوت لم يقاطعه احد. الجميع متأثر يتأمل فيما سمع . واخيرا ارتفع من جديد صوت المشلفم :

ـ من الان ، لا اريد ، ان يسند الي تسيير الغرفة ، اني أرفض ..

***

ساد الغرفة جو التوتر والترقب ، فحبست انفاسها لتتلقف كلمات المشلفم بكل امعان . وبعد فترة سكوت ، أستأنف صاحبنا ، وعلامات التأثر بادية عليه :

ـ اطلب من عمر المسامحة .فليستعد مكانته ، وليكن ، مرة اخرى ، « كبرانا » على غرفتنا . يصعب علي ان اراه ذليلا بدون سلطة، عرضة لانتقامات بعضكم في الشغل ، خارج الغرفة . فكما يقول المثل : « اذا طاحت البقرة استعدت السكاكين » !.

طلب احد القوم الكلمة :

ـ نعاهدك بحق القمح والملح اللذين نتقاسمهما منذ زمان اننا لا نترك احدا يؤذيه .

فقاطع المشلفم :

ـ يستحيل علي ان يعدم ، في غرفة واحدة ، شخصان . اولهما عمر ، لان نزعه من السلطة هو الخطر الكبير على معنويته وجسده . ان في نزعه اعداما له محققا . انظروا اليه ! لقد ذبل خلال هذه الشهور الاخيرة . الا يكفينا اننا اعدمنا الحاج عبد الله الدكالي ؟ فالمشلفم قناع ! انه دور العبه لان الظروف فرضت ذلك . فمن وراء القناع شبح عبد الله الدكالي لم يفن مع الشخص . انه يتابعني ، ولكني سأعمل جهدي ليفنى مع الماضي ، مع اللحية ومع الصلاة ، عساني لا اعود الى عزلتي الخانقة ، الى الوحدة في عالم غير عالمكم . فعندما تختنق كل انفاس شبح الحاج عبد الله الدكالي ، وهذا لن يطول ، سأتحرر تحرري النهائي، واصير منسجما كامل الانسجام معكم .

مد يده الى عمر يصافحه ، ثم الى كل القوم واحدا واحدا :

ـ فلننم الان ، وغدا سنتلقى الاوامر من عمر ، كالعادة ، فلنبايعه من جديد ، وبالاجماع ، كما نزعناه بالاجماع .

***

تأثر الجميع بموقف المشلفم . كانت مفاجأة صادمة : القائد المنتصر يتنازل عن التاج ويدعم سلطة خصمه اللدود ! ... لم يتعود القوم الا شريعة الغاب : الحق مع الغالب ، ويبقى هو الغالب ما بقيت قوته تسمح له بأن يركل ويلطم . وليس على الضعيف الا أن يخدم القوي ليحتمي به.

تجمع أفراد ، في كل ركن من الغرفة ، وهم وقوفا ، والتف البعض حول المشلفم ، فمن متمتم ومن مجاهر بالصوت . وبعد اكثر من عشر دقائق ، كان خلالها عمر يتنقل من جماعة الى اخرى ، ضرب بحجرة صغيرة على علبة من القصدير أربع ضربات ، ففهم القوم العبارة ، واصطفوا مسندين ظهورهم الى الجدران ، في نظام عسكري : تقدم عمر الى الوسط ، ونظر الى رفاقه مبتسما ، وقال مخاطبا المشلفم :

ـ اني أقبل اقتراحك ، على شرط ان تعطي انت الاوامر ، وانا انفذ ، (ثم الى القوم) : سنسحب من كلامنا اسم « المشلفم » ولا ننادي رفيقنا الا ب « الحاج » .. متفقون ؟

ـ يحيا الحاج ! يحيا الحاج !..

هنا تدخل المشلفم ليؤكد بأن الحاج الدكالي انتحر ، فمن المستحيل احياؤه :

ـ اننا ابناء اليوم ، لا ابناء امس ... فلنترك الحاج عبد الله الدكالي في الماضي مع الموتى . المشلفم قد قتل ذكريات الحاج عبد الله الدكالي ، ومبادئه ، واعماله ! لا أريد اسما بدون مسمى .

استرسل صاحبنا يشرح للرفاق ان الاشخاص كالزهور التي تذبل اذا لم تسق . فالحاج عبد الله الدكالي يبست غصونه في السجن : كان متعلما فقيها ، ولكن معرفته جف معينها من قلة الاستعمال والانفاق ، ان العلم لا يعرف الوقوف ، فاما زيادة ، واما نقصان حتى الاضمحلال . ثم أضاف :

ـ لقد رمي بي في السجن وانا ، والله يشهد ، بريء ، فوجدت عزائي في العبادة المغلقة ، اي في الانكماش على نفسي . واليوم ، قد تفهمت ان افضل وانجع انواع العبادات ما يوصل الى الله ، عن طريق خدمة اخواني من البشر ، وان الفائدة الحقيقية لثقافتي هي ان أستغل معرفتي في تعليم الاخرين . بيد ان عنادكم أقوى من عزمي ، كان مكركم شديدا حتى انهزم الحاج عبد الله الدكالي وحل محله المشلفم ، بعد تردد اليم .. ان الانسلاخ عن الشخصية فوق طاقة أي انسان ، انها مأساة عشتها أعواما وانا أصارع الحاج عبدالله الدكالي.. أما الان ، وقد قضي الامر ، فلننم بسلام . فقاطعه عمر :

ـ أولا ، ان الشخص الذي نقترحه ليس هو الحاج عبد الله الدكالي الاناني ، كما وصفته ، بل شخص اخر : انه « الحاج » ، ثانيا ، ان الانتصار الحقيقي لم تحصل عليه بعد . حقا ، ان يتحول الانسان من شخص سام الى شخص سافل ، مثلما فعلت أنت ، عمل صعب ، ولكنه ليس مستحيلا ما دمت قد حققته . اما المعجزة التي يتمنى جميع الرفاق ان تنجزها ، فهي ان تحول المشلفم الى الحاج ، وان تجعل منا حلفاء للثاني على الاول . انك تعلم ان الهبوط أيسر من الصعود ، في كل الميادين .. وعلى أي حال ، فالرفاق قد تداولوا واتفقوا على مقترحات أطلب منك ، أنا « الكبران » عمر ، ان تنصت اليها (ثم الى المساجين) : ١٣٠٩ ! (١)

الرجل ١٣٠٩ مربع القامة ، اسمر ، له حاجبان كثيفان . تقدم من المشلفم وقال :

ـ باسم اصحاب العشرين (٢) ، أطلب من المشلفم ان ينسحب ليترك المكان للحاج يعلمنا القراءة والكتابة .

ثم نادى عمر على ٦٠٠٣ ، فتقدم رجل أعرج ، طويل القامة ، وصاح في المشلفم :

ـ باسم اصحاب الخمسة عشر ، اؤيد اصحاب العشرين ، كما اريد شيئا من التهذيب ، والله يرحم من علمنا .

ومر ممثل أصحاب العشرة ، واخيرا جاء دور ممثل اصحاب ما بين العشرة والخمسة : الكل لا يريد بالحاج بديلا ويلح عليه في تنظيم دروس .

كان النصف التحتي من جدران غرف (عين مومن) مصبوغا بالاسود ، وليس ثمة عناء في التقاط قطع من الجبص من معامل او من مزارع السجن واستخدامها على جدران الغرفة ، انها سبورة ممتازة .

تتابعت الدروس بانتظام ، والحاج لا يعرف معنى للراحة : يعيش للرفاق . وبقدر ما تنمو المكتسبات الاخلاقية والتعليمية ، بقدر ما يزداد صرامة مع القوم ، ملحا على أن لا يترك صغيرة الا أحصاها ، فكم من مرة دخل في شطحة عصبية ، يوبخ ويرعد .

أضحى جميع القاطنين بسجن (عين مومن) على علم بما يجري في غرفة ٧٣ ، فأطلق عليها أحد المسيرين الاداريين « المدينة الفاضلة » ، واصطلح عليها المسجونون « جامعة الشعب » ، كما سماها اخرون « المسجد » . وكلما تحرر أحد من القوم ، متن اتصالات مع الرفاق من الفوج ، بالمراسلات ، وطرود الاطعمة ، والملابس ، والزيارات في الاعياد .

***

نجحت مهمة الحاج فكان له النصر الاخير على المشلفم . لهذا ، لما وقف مساء ليلة الخميس ٧ اكتوبر ١٩٦٣ وصاح « يا اخوة ! » ، « يا رجال ! » ، بصوت أبح ورنات منفعلة ، شعر القوم بأن شيئا ذا بال قد حدث ، او على وشك الحدوث .

وفعلا ، أطلعهم الحاج على مشكل هام جدا : بمناسبة ١٨ نوفمبر ، يوم عيد الاستقلال والعرش ، تقرر بوزارة العدل ان يكون الحاج من بين الذين سيشملهم العفو . هكذا سينتهي ، بعد شهر ، مصيره

(١) يعرف الاشخاص ، في السجن ، بأرقامهم ، وبها ينادى عليهم.

(٢) في عرف السجن : هم المحكوم عليهم بعشرين سنة

بعين مومن ... كان الحكم على الحاج بعشرين سنة ، ولحسن سلوكه بالسجن ، أعفي من خمسه اعوام ، وها هو العفو يرعاه مرة أخرى فيخفض له من حسابه ثلاث سنوات ، وسيفرج عنه . ولكن ، لاول مرة في تاريخ (عين مومن) يرفض سجين العفو والحرية !.. يرفض المشي في الطرقات كما يشاء ، واكل ((الطواجين)) ، ومجالسة النساء ، والنوم بدون نفنين أو تفتيش .. آه على الحرية ! امال ارديهشخصية، واعمال مجانية ...

تنهد الحاج ، قبل ان يصرح :

ـ لا اخفي عليكم انه ، منذ وصلني الخبر ، وانا في ذهـول .. اني جد قلق على مصير ((مدينتنا الفاضلة)) . لقد بنيناها جميعا . فمن جهتي انا ، اعتبر ان احسن عمل ساهمت فيـــه ، طوال حياتي ، هو هـــذا .

فصاح أحدهم :

ـ هذه ((الجامعة الشعبية)) كلها من عملك ، لولاك ما تحققت .

ـ لا ! لا تبالغ ! انها عمل مشترك تساوت فيه الاسهم .. على كل حال لقد صح عزمي على ان ارفض الخروج الى دنيا الاخرين ...

فقاطعه عمر :

ـ لا معنى للرفض ! انه موقف سلبي ، حرام عليك ان تضحـي بحريتك من اجلنا . ان لنفسك عليك حقا ، ولاهلك عليك حقا .

ـ لا حق لاهلي علي ! لقد نسوني ! اننا عشرة سنة بالسجـن ، يا أخي ، شيء غليظ على البصر ، ثقيل على الذاكرة !.. في الخارج ، كل واحد سجين لمصالحه ، لها يعيش ، لا بها . انهم جميعا يحترقون، كل يوم ، بلهيب المزاحمات والكذب والنفاق . أشهد اني من غرفة ٧٢ ، أعيش بمبادئها ، ولا أسعد الا في هذا الجو من الاخاء والصدق .

ساد الشرفة صمت ثقيل ، وتجلى مزيج من الفرح والحزن عـــلى كثير من الوجوه ، ففاجأهم ٨.٩ بقوله :

ـ لقد عودنا الحاج على التأمل قبل اتخاذ القرارات ، وان نقـوم بتصويت ديمقراطي ، كلما وجدنا أنفسنا امام مشكل ذي بال . فلماذا الحاج يتخذ موقفا نهائيا دون مشاورتنا ؟

فعقب ١٢.٥ بقوله :

ـ نعم ، لا بد من أن ندرس جميعا الوضع . لن نسمح للحـاج ان يقرر وحده الحل .

فأضاف اخر :

ـ من رأيي ان نقنعه بالخروج ، وأن نعـــــده بأن غرفتنا ستبقى ((جامعة)) ، و ((مدينة فاضلة)) ، و ((مسجدا)) . فليس عليه ان يضحي من أجلنا اكثر مما فعل . لا يكلف الله نفسا الا وسعها . هـــذه تعاليم الحاج نفسه .. أليس كذلك ؟

حاصرت الانظار الحاج ، وبها حنان ، وفيها استعطاف . فشعـــر بأن الاجماع قد وقع على غير رأيه ، ولكن هذه المرة تقوم المعارضة على المودة والاخلاص ، لا على العداء والشر :

ـ معذرة ايها الاخوان . اريد ان اعرف ماذا ترون اني فاعل فـي الخارج ؟ اتريدون أن أقبل الحاج لانسجم هناك مع عالم المجـالات والغش ؟..

ـ أنت مثقف كثيرا ، وطيب كثيـــرا ، فستحقق مشاريع أجمل وأفضل مما فعلت هنا . اننا لا نخاف على الحاج !

ـ تخمينات بريئة ، ولكنها ساذجة ! في بيئتهم ، خارج (عيـــن مومن) ، الرطب يحترق باليابس . ان عدوى الشر والفساد اقوى مـن عدوى الخير والاصـــلاح . أتظنون ان الثقافـــة تعطي الحصانة ؟ يا للسذاجة ! اني لم أدع دوري كمثقف الا هنا ، منذ الليلة الملعونة ، ليلة حلق اللحية .. فلو قام مثقفونا بدورهم ، لما كان عدد سكـــان (عين مومن) وبقية السجون بالمغرب كثيرا الى هذا الحد المدهش .. ماذا أستفدتم أنتم من الفقهاء ؟ ما اكثرهم ببلادنا ! المثقفون كالجراد بتطوان ، وفاس ، ومراكش ، والدار البيضاء ... فلماذا لا يزورون المعتقلات ليعظوا السجنـــــاء ويواسوهم ؟ لماذا لا يحاربون الاميـــة بالسجون ، وأيام الاسواق بالبوادي ؟

سكت الحاج ، ومسح جبينه بكمه ، وغاب نظره بعض الوقت ، ثم أردف باستعطاف :

ـ أناشدكم الله ! شجعوني على ان ابقى معكم . هنـــا نتحقق هويتي ، كما يرضاها ضميري . خذوا بيدي .. لا ترموا بي فـي حبس حريتهم . اتركوني حرا في سجنكم .. هنا اعمل ، مع جماعـة حسنة النية ، لنحقق أهدافا لا نرجو من ورائها أية مصلحة خاصة . اما في بيئتهم ، فلا بد لي ان اصير ، اما الحاج عبد الله الدكالي المجامـل المقنع ، واما المسلم الفظ الغليظ القلب . لكن ، من المستحيل ، في الوقت الحاضر ، ان اكون في وسطهم الحاج الذي يحبكم وتحبونـــه ، حاج غرفتنا العزيزة .

بعد مناقشة بين الحاج وبعض الرفاق ، ختم عمر الجلسة :

ـ القضية تتطلب مزيدا من التأمل . فلنتناولها بعد غد ، بعـــد أن تختمر . هل انتم متفقون ؟

ـ نعم !

ـ ليلة سعيدة !

***

نام البعض ، وأصيب أخرون بالارق ، فاندفع فكرهم يسبح فـــي عالم الافتراضات والتخوفات :

ـ اذا خرج الحاج ، انفصمت عروة غرفتنا ، وعدنا الى ما كنـــا عليه : تشاجر وتقاتل ...

ـ بدون الحاج ، ستصبح الغلبة لاصحاب العضلات القوية ... فويل للضعفاء !..

ـ من واجبنا ان نشجعه على ان يخرج الى حياة الاحرار ... من الظلم ان يبقى الحاج في السجن ...

وبينما كان بعض القوم يعيش صراعا بين النوم والتفكير فيالموقف من وضع الحاج ، انتصر صاحبنا على اعصابه ، وقبض على عنانالنوم ، ثم استسلم الى أحلامه وشخيره المعتاد .

***

لم يكن ، هذه الليلة ، حلم الحاج حلما هادئا ، بل كان كابوسا :

ها هو ينقل خطوات ثقيلة في أزقة الدار البيضاء ، ولكنه عبثا يحاول أن يتعرف على وجوه مواطنيه وعلى الامكنة : كل شيء قد تغير، انه غريب في مسقط رأسه . آه ! هو لم يرغب في الخروج من (عين مومن) ، فمن أخرجه ؟ الم يرفض ؟ لقد نسي : ربما خضع لالحـاح عمر والاخوان فقبل الخروج ارضاء لهم ... على أي حال ، انه قـــد نسي ، هو لا يدري ، فرأسه يوجعه ، وفي اذنيه طنين ... لاحقه الليل وهو يسير في طرق كثيرة متشعبة . سار حتى أرهقه المشي ، فجلس على عتبة بناية كبيرة ليستريح .

الطريق طويلة ...

الليـل بـارد ...

البطن فـــارغ ...

الثياب خفيفة ...

وضع الحاج جبينه في كفيه ، وضع ركبتيه ، وركز مرفقيه عـــلى الفخذين . لم يمر الا وقت قصير حتى سمع :

ـ ايه ! ماذا تفعل هنا ؟ هذه العتبة ليست سرير النوم ...

وقف الحاج واعتذر : انه تعب ، جلس ليستريح . فصاح فيـــه الشرطـــي :

ـ الواحدة صباحا و ٢٥ دقيقة ! غريب . لم تختر الا هـــذه الساعة ، وهذه العمارة !.. انك بلا شك تعرف أن الحلي التيسرقت من هنا ، منذ يومين ، تعتبر ثروة محترمة .. هل لك رفاق يستريحون، مثلك ، في بعض العمارات ؟!..

ـ لا ، اني وحيد .

نفخ الشرطي في صفارته ، فاهتزت أعصاب الحاج وهو مذهول في وقفة صليب مثلج . ولم تمض الا ثوان ، حتى نزل شرطيون من سيارة سوداء مستطيلة محصنة ، وأحاطوا بصاحبنا . فقال له الشرطي الاول :

ـ هات ! أطلعني على ورقة الهوية .

أخذ الحاج يتمتم :

ـ الهو .. ويـ .. يا ؟.. خرجت من (عين مومن) هذا الصباح. ما عندي أوراق .. ليست لي هوية ..

ـ كم قضيت بالسجن ؟

ـ حكم علي بعشرين ، قضيت منها اثنتي عشرة .

ـ أيوا ! اذن لك سوابق !.. نعم الغنيمة !.. اطلع هنا !

صعد صاحبنا السيارة ـ العلبة ، وأوصد الشرطيون الباب والشبابيك ، فنظر الى رفاقه في السيارة ، وهم عنه غافلون . ثقل عليه همه ، يريد أن يشتكي ، ان يبوح بحزنه . ففاتح الرفاق الثلاثة :

ـ فبحه الله من زمن ! ما ذنبي ؟ ألاني كنت في السجن مرة ، يلزم ان اتهم كل المرات ؟

رفع أحدهم رأسه ، فنجلت لحيته الطويلة الانيقة وقد ازدان بها وجه عريض ، واجاب وهو يحرك حبات السبحة :

ـ هذه مقادير الله تتصرف ! اصبر ، وقل الحمد لله على ما أعطى . على كل حال ، أرجوك ألا تقاطعني مرة اخرى ، لاني أتلو آيات من الذكر الحكيم وبعض الاذكار .

سمع صاحبنا هذه الجملة الجافة ، بشيء من الذعر : رنات الصوت ، واللحية ، والهندام ، و ... نعم : الصوت ، اللحية ، الجسم ... الكل معروف مألوف عند صاحبنا : أن الرجل الذي أمامه بسبحته ولحيته واذكاره هو .. الحاج عبد الله الدكالي !.. جمع صاحبنا كل قواه وصاح :

ـ أنت هنا ؟.. ألم أطلقك طلاقا بائنا ؟ اسكت ! لا حاجة لي في كلامك الفارغ .. لماذا تتابعني ؟ ألم أقتلك ؟

ـ الماضي لا يقتل ، انما نتناساه ، حتى اذا جاءت الفرصة المواتية ، انفجر من الاعماق وحاصرنا .

ـ اسمع ايها الحاج عبد الله الدكالي ! ان كنت لم أقتلك ، فاني فاعل الان .

ضم أصابع يده اليمنى ، وأخذ رفيقه باليسرى من لحيته ، وصار يضربه بشدة على رأسه ، حتى نبع الدم من اليد وسقط عبد الله الدكالي مغمى عليه . فصاح رفيق ثان ، بلهجة متصعلكة :

ـ ماذا نفعل ؟ احتفظ بقواك لصراعات تنتظرك بالسجن !.. هناك لن تجد امثال هذا الفقيه ، بل زمرا من الخبثاء الذين لا يعبرون الا بالركل ولا يهابون الا القوة الجسمية . اترك هذا الشيخ المفلس ، وادخر قواك لسجناء (العاذر) او (عين مومن) .

كانت كلمات الرجل تنزل على صاحبنا كحجارة نارية تكويه : رنات الصوت ، واللهجة ، والشاربان ، والنظرات القاسية ، كل ذلك تجمعه بصاحبنا روابط عميقة . جحظت عينا صاحبنا وصاح مذعورا :

ـ المشلفم !.. المشلفم !.. انت ايضا هنا ؟.. المشلفم !.. ماذا تفعل هنا ؟ ألم أعدمك ؟ انه هو ! المشلفم اللعين !..

فاطعه المشلفم :

ـ مسكين ! أتظن ان الواقع يسير طبقا لذوقك وارادتك ؟ لقد وددت ان تنفصل عن المشلفم الى الابد ! ها .. ها !.. محال ، يا مولانا، ان ينسلخ المرء عن ماضيه ، عن شخصياته ، أي عن المراحل التي مر بها حياته . ماضينا يلاحقنا . الماضي من كيان الهوية .

ـ اسكت ، ايها الاجلف ! اني لا احترمك ، لا احبك . لا ..

ـ ان احترامك وحبك لا يغيران شيئا من الواقع . سابقي أنا أنت ، وستبقى انت انا ، الى الابد .

رفع الرفيق الثالث رأسه ، وابتسم لصاحبنا ، فوقف هذا وابتسم قبل ان يرمى بين ذراعي الرجل :

ـ آه : الحاج ! عنك ابحث . الحاج !.. الحاج !.. انت عزيز علي . الحاج ! اريد ان انسى الشخصيتين الاخريين فيك !..

***

صاح صاحبنا صيحة تردد صداها في اركان الغرفة ٧٣ ، فاقترب عمر منه وقطع عليه حلمه ، فاستيقظ وقال :

ـ اسمحوا لي ، أيها الاخوان ! ان شخراني ، وأحلامي المزعجة تعوقكم عن النوم .

ـ لا بأس ، لا بأس !

ـ لقد رأيت اني خرجت الى العالم الاخر ، فأثقلت كاهلي حرياته المزورة . اني لا اجد حريتي الحق واطمئناني الا في سجننا ، في مدينتنا الفاضلة . هناك ، في عالمهم الاخر ، وجدتني محاصرا بالجريمة التي لم أرتكبها ، بالظلم ، بالنهم... كنت فريسة للضياع... اني لا اريد بأخوتكم واخلاصكم بديلا ..

تدخل أحد المساجين ليصرح بأن الحاج سيبقى معذبا في الخارج اذا اكتفت العدالة بالعفو عنه . لو أن العدالة كانت مستقيمة لوصلت الى براءته . ففي العفو تأكيد للجريمة .. البراءة وحدها تغسل وجه المظلومين من سواد التهمة . ان رفض الحاج للعفو هو رفض للظلم وتشبث بالبراءة ..

فقاطعه عمر :

ـ الان نوم ، وغدا أمر !.. اننا في حاجة الى شيء من الراحة . ألم نجمع على ان نترك الفصل في القضية الى بعد غد ؟ ليلة سعيدة !

ـ ليلة سعيدة .

المغرب

محمد عزيز الحبابي

آخر منشورات

دار الاداب ـ بيروت

ق.ل

- دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
  للدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٥٠
- تجديد رسالة الغفران لخليل الهنداوي ٢٥٠
- جومبي (رواية) لاديب نحوي ١٢٥
- الخيل والنساء (قصص)
  للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠
- رحماك يا دمشق (قصص)
  للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠